منهج الإلهام والذوق في قراءة وتأويل القرآن الكريم

عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي

د. عصمت محمود أحمد سليمان(*)

توطئة

ينظر الكثيرون إلى القرآن الكريم بحسبانه الكتاب الموحى الذي ما فتيء يعلن عن كونه «ظاهرة توحيدية فذة، فلم يكن استمرار لأى مسارٍ سابقٍ له شعراً كان أم نثراً[١]، فهو كما يقول طه حسين: ليس نثراً، كما أنه ليس شعراً، ولكنه ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] كان وحيداً في بابه، لم يكن قبله، ولم يكن بعده مثله»[٢].

وقف العلماء والمفكرون المسلمون بين يدي هذه الظاهرة التوحيدية الفذة جيلاً تلو جيلٍ متأملين أبعاد وخصائص الوحي القرآني وسماته الفريدة. فكان أن حفلت الحضارة الإسلامية بعشرات الاتجاهات والمدارس التي مضت لاجتلاء حقائق القرآن الكريم والإبانة عن مراميه والإظهار لمعانيه، فجاءت محصلة ذلك أننا نقف اليوم على قدرٍ وافرٍ مما انتجته اتجاهات ومدارس شتى؛ سمت وارتقت باتجاه مقاربة أنوار وقبسات القرآن الكريم، وهي في جملتها تظل جديرة بالدرس والتأمل.

لئن شهد الفكر الإسلامي في حقبه المعاصرة طائفة من مساهمات علماء ومفكرين في حقل قراءة وتأويل القرآن الكريم كالإمام محمد عبده وتلميذه محمد رضا في «المنار»، أو الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» أو سيد قطب في «في ظلال القرآن»؛ فإنه يجدر

(*) أستاذ بقسم الفلسفة جامعة الخرطوم، كلية الآداب.

(١) يمنى طريف الخولي: أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٦٨.

(٢) طه حسين، من حديث الشعر والنثر، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها (بدون) ص ٢٥ (بتصرف).

النظر لمساهمة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي[١] ومساعيه لتجلية حقائق القرآن الكريم على امتداد «رسائل النور» بحسبانها واحدة من تلك المساهمات والاتجاهات لتقديم قراءات تكشف عن معاني ومرامي آيات القرآن الكريم.

هذه الدراسة وهي تتطلع لتقديم رؤية تحليلية لاتجاه الإمام النورسي ومدرسته في قراءة وتأويل القرآن الكريم؛ فإنها تود أن تصوب النظر باتجاه منحى رئيس يسعى للكشف عن السمة الرئيسة الذي تتميز بها مدرسة الإمام النورسي في تجلية حقائق القرآن الكريم.

فرسائل النور إلى جانب كونها كغيرها من الاتجاهات والمدارس الأخرى التي قد اعتمدت في جانب كبير منها على إحاطة مؤلفها بالعلوم والمعارف المعلومة التي يحتاجها عادة المتدبر لكتاب الله؛ إلا أن مسار الترقي الروحي وتجربة التكمل الروحي للإمام النورسي ظل حاضر بصورة جلية وبينة بحيث لا يكاد ذلك المسار ينفك عن محصلة القراءة والتأويل للقرآن الكريم عند الإمام النورسي.

وهذا ما ينتهي بنا إلى التقرير بأنه لا يمكن النظر في اتجاهات تأويل القرآن الحكيم وقراءته عند النورسي بمعزل عن مسيرة وتجربة ترقيه وتكمله الروحيين، وما خلص إليه من معاني دقيقة حيال مفاهيم موصولة بالإلهام والذوق يندر أن تجدها بهذا التوسع والإفاضة لدى غيره..

وفق هذا السياق أخذت هذه الدراسة عنوانها: «**منهج الإلهام والذوق في قراءة وتأويل القرآن عند الإمام النورسي**»؛ سعى الباحث من خلالها توظيف واعتماد منهجية تحليلية تتمحور حول طرح وبسط المفهومات العامة والتصورات الكلية حول الوحي القرآني والإلهام والذوق والترقي والتكمل الروحيين.

وتتجه الدراسة نحو التحليل لمضمون النصوص الواردة في ثنايا رسائل النور للإمام النورسي، وأعني بالتحليل محاولة الربط والتعليل والاستنتاج بين مختلف الجزئيات وإعادة

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٧م - ١٩٦٠م) كان مولده بقرية نورس شرقي تركيا، وألم ونبغ في علوم ومعارف عصره في مرحلة باكرة من حياته، ونادى بتأسيس مدرسة الزهراء كصنو للأزهر، وبعد إلغاء الخلافة العثمانية أوقف حياته للدعوة إلى الحقائق الإيمانية؛ وفي سبيل ذلك ألف كليات رسائل النور التي ترتكز في أغلبها على المسائل الإيمانية.

تركيبها في رؤية كلية جامعة محاولة من خلالها التعبير بدقة عن رؤية الإمام النورسي ومنهجه إزاء قراءة وتأويل القرآن الكريم في استناده بصورة جوهرية على الإلهام والذوق.

تجيء بنية الدراسة متضمنة ثلاث مباحث رئيسة وخاتمة، يتناول المبحث الأول المفاهيم التأسيسية للدراسة وهي المفهومات الموصولة بتلازم الوحي القرآني وانفتاحه على فضاء الإلهام، واستناد نشؤ تدرجات الإلهام على مسار الترقي الروحي لدي المؤمنين بقدسية و إعجاز الوحي القرآني.

يقدم المبحث الثاني قرأءة في التجربة الروحية للإمام النورسي، مستحضراً الإشارات المتواترة في ثنايا رسائل النور إلى إلهامية الواردات فيها باعتبارها ترشحات للوحي القرآني، ليخلص المبحث الثالث إلى الاستبصار في تجليات منهج الإلهام والذوق في قراءة القرآن الكريم لدي الإمام النورسي.

نظراً لوجود أكثر من ترجمة عربية؛ فأود التنويه بأن الدراسة تعتمد الترجمة العربية لكليات رسائل النور المنجزة بواسطة مركز الترجمة والبحوث، الصادرة عن دار السنابل الذهبية بالقاهرة، وهي ترجمة تمتاز بأن عمل جماعي لمجموعة أساتذة أتراك من طلاب رسائل النور.

المبحث الأول

التلازم بين الوحي القرآني والترقي الروحي وفضاء الإلهام

ينفرد القرآن الكريم بطائفة من الخصائص والسمات لعل من أبرزها كونه لم ينزل دفعة واحدة، بل نزل منجماً على الوقائع والأحوال كما يقول علماء التنزيل، ومن ثم نستطيع الاقرار بوثاقة الصلة بين تواتر الوحي القرآني وتعاقب تنزله من جهة، وما يستجد على صعيد المجتمع من وقائع من الجهة الأخرى، مما يرسخ لمفهوم جذري تأسيسي يتمثل في أن القرآن الكريم يظل وثيق الصلة بالواقع الإنساني في تقلباته وعلى تباين حقول الفعل الإنساني.

على ذات النحو فإن ثمة مفهوم جذري آخر إلى جانب مفهوم وحقيقة التنجيم يُعزز بذات القدر وثاقة تلك العلائق بين الوحي القرآني ومجتمع التنزل الأول، ألا وهو مفهوم تقسيم آيات الوحي وسوره إلى المكي والمدني؛ ومهما يكن الخلاف حول عمدة ذلك التقسيم سواء كان مكاناً أو زماناً أو أسلوباً، كما هو مستفاض حوله بتوسع في أغلب تآليف علوم القرآن[1]، فإنه لا خلاف في أن مضمون ذلك التقسيم وجوهره لا يعدو أن يكون ماثل في حقيقةٍ تشير بجلاء إلى أن الوحي القرآني يختلف من حيث موضوعاته وقضاياه وأساليبه تبعاً لواقع التنزل ووقائعه سواء مكياً كان أو مدنياً.

وفق السياق أعلاه فإن تنزل الوحي القرآني تبعاً لوقائع ومشكلات واستفهامات واقع التنزل الأول يشير بوضوح إلى ثمة علاقة إحاطة تأمة وتواصل واتصال متفاعل من قبل الوحي القرآني بواقع ذلك المجتمع؛ اتصالاً يدور فيها الوحي بخطابه ونداءاته حول انشغالات المجتمع في واقعه المعاش، وهي الحالة التي تكشف طبيعة وماهية الوحي القرآني في علاقته الوثيقة بالواقع، وهي حالة ربما احتاجت لمزيد من التأمل والدرس إذ ظلت عصية على العقل الإسلامي تصور أبعادها على المستوى النظري فضلاً عن تلمس أبعادها العملية.

نجد أن ثمة تلازم رئيسي بين الوحي والإلهام على المستوى الدلالي والمفهومي، «فأهل العربية يتوافقون على معاني كثيرة للمراد من (الوحي) كالإشارة والكتابة، والرسالة والإلهام، والكلام الخفي والمكتوب والأمر، وكل ما ألقيته إلى غيرك، والتسخير والرؤية الصادقة،

(١) للمزيد محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق هاني الحاج، القاهرة، المكتبة الوقفية، الطبعة وتاريخها (بدون)، ص ١٩٣ وما بعدها.

والصوت يكون في الناس وغيرهم، ثم أردفوا بقولهم: «إن الوحي قصر على الإلهام وغلب استعماله فيما يلقي من عند الله تعالى على الأنبياء أو الأولياء»[١]، وبذلك يمكن الخلوص إلى أن أصل الوحي في اللغة كلها إسرار و إعلام في الخفاء؛ ومن هذا الباب صار الإلهام عندهم يسمى وحياً كما ذكره صاحب لسان العرب[٢].

ربما بدا ما مضى ذكره أقربُ لما هو معلومٌ ضرورةً؛ بيد أن المراد من إيراده الانتقال من هذا المعلوم والتأسيس عليه باتجاه استبصار تأملي باتجاه ترسيخ مفهوم القابلية التي ينطوى عليها الوحي القرآني والقدرة الكامنة فيه لإثراء واغناء التجربة الإلهامية والروحية لدي المعنيين والمتصلين به دوماً وبلا انقطاع، بدايةً من الرسول الأكرم صلى الله من جهة، وتراتيبياً لمن هم من بعده من الجيل الأول من المؤمنين وهم الصحابة رضوان الله عليهم، وبذلك ينفتح الباب بل يظل مفتوحاً ما بقى ذلك الوحي القرآني على تجارب الإلهام والذوق العرفاني التي تجيء في جذر نشؤها مصاحبة وملازمة لظاهرة الوحي القرآني وهو ما يرسخ وجود الملهمين والمكلمين على تباين بيئات وأزمان الإيمان المتجددة.

يلحظ الدارس بجلاء في واقع التنزل الأول (عصر النبوة) نشؤ علاقة تفاعلٍ وتواصلٍ، على نحوٍ يُزاوج ويُمازج بين الرسالة (الوحي القرآني) والرسول ﷺ، وفق سياقٍ تفاعلي إلهامي، بين الوحي القرآني كخطاب هداية ووحي سماوي من جهة، وبين حركة النبوة ومساراتها على واقع الحياة من الجهة الأخرى.

لقد اقتضى نشؤ تلك العلاقة التي عمادها الحدس والإلهام والمكاشفة العالية ابتداءً أن يتلقى الرسول ﷺ تأهيلاً روحياً عالياً، وقد أخبر القرآن الكريم عن تلقي الرسول ﷺ لذلك القول الثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٣] بما يشيء ضمنا إلى تلقيه تأهيلًا روحياً بلغ به مقام الكمالات الروحية، ليتهيأ له أن بلوغ آفاقاً سامية عمدتها وروحها تجليات الوحي المراد تبليغه، بحيث يغدو الرسول ﷺ العنصر الحي الذي يتحرك في اتساق تام مع كمالات الوحي القرآني المراد تبليغه، أو وفق سياق آخر «اتساق حركة النبوة مع الرسالة».

---

(١) مصطفى عبد الرازق: الدين والوحي والإسلام، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة (بدون) ٢٠١٣م، ص ٣٦.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها (بدون)، ٦ \ ٤٧٨٧.

(٣) سورة المزمل: الآية ٥.

الوحي القرآني والإلهامات في مجتمع الصحابة

لقد تنبه العقل الإسلامي وموروثه الفكري لذلك النمط المتعالي والمتسامي من العلاقة الإلهامية بين الوحي القرآني من جهة، وطائفة من الصحابة رضوان الله عليهم من الجهة الأخرى، وتجلت وجوه تلك العلاقة في وقائع إلهامية مباشرة موصولة بعدد منهم الأصحاب؛ ولا يفوت هنا الإشارة إلى أن الغالب في تناول هذه المرويات والوقائع أن يتم إبرازها على نحوٍ احتفائي بحسبانها من مناقب هؤلاء الأصحاب دون التعمق في أبعادها البعيدة.

هكذا فإننا واجدون على نحو ما أن أمهات كتب المرويات تظل ذاخرة بما تعارف عليه بموافقات عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقرآن الكريم، والاطار العام لذلك يجمله ما روي عن ابن عمر في مقالته: «ما نزل بالناس أمر فقالوا وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر»[1]، ولقد بلغ أمر تلك المرويات من الكثرة ما حمل الإمام السيوطي لتأليف منظومة مسماة «**قطف الثمر في موافقات عمر**» يعدد فيها ست عشرة مسألة نزل القرآن الكريم فيها موافقاً لرأي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على نحوٍ عام يسوقنا التأمل في هذه المرويات العمرية من حيث مضمونها للخلوص إلى كونها تنطوي على إشارات لوقائع حالات إلهامات إيمانية وروحية عميقة منبعها الاتصال الوثيق والتفاعل بالوحي القرآني، إذ تعكس في تجليها استجابة إيجابية لتعاليم الوحي وقيمه، وتكشف عن سعي دؤوب وتشابك بين الوحي القرآني وقائع الحياة.

ومن هنا تظل هذه العلاقة منطوية على قدر كبير من القابلية لإثراء المنحى الإلهامي متجذرة في طبيعة الوحى القرآني، مما يحيله لخطاب ونداء يفيض حيوية فيرافق حركة المؤمنين في دروب الحياة وشعابها، فينطلق المؤمن من واقع حياته إلى القرآن وظلاله، ومن خلال التماهي مع الوحي القرآني يظل المؤمن يحيا حالةً لا يكف فيها بحال من الأحوال عن محاورة القرآن الكريم ومحاولة استنطاقه، باتجاه ترقي وتسامي روحي تتساقط عنه باستمرار مثقلات الحياة الدنيا وشواغلها، مقبلاً بكليته صوب تحقيق مرامي الوحي القرآني، وهو من خلال هذه الحياة الروحية تترسخ تجربته في التحقق والملازمة لأداب الوحي القرآني وتعاليمه حتى لكأنه يُلهمه وينطق به ويلقي إليه تكليماً بأسراره ودقائقه.

---

(١) الحديث أورده الترمذي في سننه في باب مناقب عمر بن الخطاب.

لم تكن ظاهرة الموافقات الإلهامية حصراً على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى نعد مجيئها في اطار فردي، بمعنى كونها أختص بها فرد في مجتمع التنزل الأول؛ فالظاهرة تواتر ثبوتها لنفر آخر من صحابة رسول الله، وحسبنا ذكر ما أورده ابن اسحق في الطبقات من:

«أن مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حمل اللواء يوم أحد، فقطعت يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) ثم قطعت يده اليسرى، فحني على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يردد نفس الآية، ثم قتل فسقط اللواء، ولم تكن الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1] نزلت يومئذ و إنما نزلت بعد ذلك».

وقريب من واقعة مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نجده في قصة الصحابي هلال بن أمية التي أوردها البخاري في صحيحه، من أن هلال بن أمية قذف أمرأته عند النبي ﷺ برجل، فطلب منه النبي ﷺ البينة أو الحد قذفاً، فكان جوابه: كيف إن رأي الرجل على إمرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ ثم اقسم أن لينزلن الله ما يبريء ظهره من الحد، فنزل الوحي على ما قال براءة له من الحد.

وعند البحث والتأمل ف هذه المرويات وغيرها مما درج على أن يطلق عليها مصطلح (الموافقات)، وإدراجها في مبحث أسباب النزول ضمن مباحث علوم القرآن الكريم، نجد أنها في جملتها تعبر عن علاقة تفاعل ومسار إلهامي بين الوحي القرآني من جهة، وما يتحرك فيه واقع حياة الناس من تطلعات وآفاق ومشكلات ومعضلات وأزمات من الجهة الأخرى، وهي وقائع نستطيع أن نشير إلى كونها تجيء كدلالة عن سمو ورقي الحياة الروحية لدي هؤلاء الملهمين والمحدثين.

هنا يمكننا الخلوص إلى أن ثمة ما نستطيع التعبير عنه كتوجه راسخ وهوادي موطدة في بناء علاقة أشد وثاقة وأمضى فاعلية بين ذلك الوحي المتنزل جهة وواقع حياة المسلمين من الجهة الأخرى، فلا يكف هؤلاء الملهمين عن محاورة القرآن الكريم واستنطاقه من جهة، ليبلغوا

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

مقاماً يمتلكون فيه ذوقاً وعرفاناً وبصيرة حدسية نورانية، تنفتح بهم باتجاه الرسوخ في مقام الالهام، أي جريان القول بالحق الموحى به على السنتهم مناسباً لقدر ترقيهم الروحي.

وفق هذا السياق نقرأ قول النبي ﷺ إشارةً إلى التجربة العمرية «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم فعمر»[1] وفي رواية أخرى قال: (محدثون)، ولا يخفي تضمن مفهوم الوحي لكل من الإلهام والتكليم والإلهام وصلتهما بالوحي، وخلاصة ما قيل في أمر الإلهام والتحديث أو التكليم لا يتقاصر دون مفهوم الإيحاء المخصوص في واقعة ما بغير بغير نبوة، لتظل وقائع الموافقات معبر وشاهد على كمالات العلاقة الإلهامية الذوقية الحدسية بين الوحي القرآني والواقع، ولتتظل منفتحة على مجتمع المؤمنين بإعجازية القرآن الكريم، متحققة ومتجددة فيهم طالما بقي الوحي وتساموا هم إلى مراقيه المعرفية والقيمية على السواء.

هكذا تبقى قابلية الإمكان متحققة على الدوام باتجاه تكرار تجربة الموافقات (الإلهامات) في عمقها وجذرها، بحيث يسطع حيناً بعد حين في مجتمع الإيمان من يكتب له التوفيق وفق سيره وصعوده في مسارات الترقي الروحي والعرفاني أن يؤتى موهبة تجسير العلاقة بينه وبين الوحي القرآني، فيوهب بفضل ذلك الترقي والتسامي ما يؤهله بلوغ مقامات الإلهام والتكليم، فيكون حينها ممكناً ومؤهلاً لاستبصار دقائق أسرار الوحي القرآني عبر نفاذ البصيرة الملهمة.

يرى الباحث أنه في حالات كثيرة لا يعدو حد ذلك الإلهام أو التكليم أكثر من استعادة استنطاق الوحي القرآني، متجلياً بأنواره في لحظة موافاته لحل معضلات الواقع حتى ليقال حينها « كأنما أنزلت الآية الساعة »، ومن ذلك موقف الصديق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما ذهول الصحابة عليهم الرضوان، ومنهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحظة الإعلان عن انتقال المصطفى ﷺ، فكان استدعاء أبي بكر للوحي القرآني من سورة آل عمران ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[2].

تلك اللحظة التي يترأى للمرء كما حدث لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأنما أنزل هذا

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباريء، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، ج٧ / ص ٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

الوحي القرآني اللحظة لموافاة هذا الواقعة تحديداً وليس لواقعة سبقت، ومن هنا كان قول النبي ﷺ: اقراؤا هذا القرآن غضا طرياً كما أنزل، والقراءة ليست إلا تدبره وتأمله وتخلل معانيه ليسمو المرء به إلى مقام تنزله معرفياً وقيمياً، ليغدو نصاً يتحرك في حياة المؤمنين تحقيقاً على النحو الذي سنجيء عليه.

الإلهام والفاعلية المعرفية للنص القرآني

إن وجود الملهمين أو المكلمين في مجتمع الإيمان ليس تعويض عن فواتها لتواتر النبوات والمرسلين، وكذلك فهو ليس استدراكاً لانقطاع الوحي الرسولي كون رسولها خاتم المرسلين، بل هو يرى البحث وجود حتمي استلزمته طبيعة الوحي القرآني والباقي فيهم، فالقرآن الكريم يعبر عن إعجازه في قدرته الدائمة وقابليته المتجددة دوماً على إيجاد فضاء وسيع للإلهام لدي المؤمنين.

فإعجازه على الصعيدين المعرفي والقيمي يستلزمان ديمومته وبقاء فاعليته حية نابضة على مر الأيام، وذلك يستدعي أمرين اثنين: الأول هو انفتاح الوحي القرآني على واقع المسلمين وتجاوزه أطر المكان والزمان ليتاح له أن يكون شديد الحضور والفاعلية في حياة المسلمين، والأمر الثاني منسل من الأول ويتطلبه وهو لاتناهي ذلك الخزين المعرفي للوحي القرآني، ورحابة ما ينفتح عليه من آفاق إلهامية حدسية.

ولعل اجتماع هاتين الخصيصتين هو ما يكسب الوحى القرآني القدرة الهائلة على تجسير العلاقة بينه وبين المؤمنين، على تجدد وتعاقب بيئات الإيمان، بحيث يتهيأ دوماً لطائفة منهم من يسمو باتجاه بلوغ كمالات الإلهام.

وإذ أن المرجو والمؤمل من هؤلاء الملهمين المكلمين أن يكونوا أشد حضوراً وتأثيراً في مجتمعاتهم، فإن حركة المجتمع المسلم وفق دافعية هؤلاء الأفذاذ يتوقع أن تجيء في سيرها صاعدة في لحظة فاعلية وحضور هؤلاء الملهمين الناطقين بدقائق وأسرار الوحي القرآني باتجاه المقاربة لتحقيق وظيفة الموحى إليه اعني الرسول ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

وبذلك هؤلاء الملهمين يستحقون أن يطلق عليهم المجددين للأمة دينها.

الإلهام والترقي الروحي

ربما ينبغي أن يظل حضوراً في الذهن أن هؤلاء الملهمين المُكلمين ليسوا بأكثر من أفراد يعملون على السمو والترقي في علاقتهم بالوحي القرآني من خلال المجاهدة المتصلة لإنزال قيمه ومطلوباته، وبالتالي فهم رغم ذلك ليس لهم عصمة المرسلين، كما أن ما يلقي إليهم من إلهام هو جزئي ونسبي.

ذلك أنهم ومن خلال تلك المجاهدة أو العلاقة التفاعلية فإنهم يخلصون إلى طائفة من (القراءة) للنص الموحى تكون هداية وتزكية لواقعهم، وهذه القراءة ليس لها العصمة أو الديمومة للقابلية في كل زمان ومكان، وإلا لكان لها سمة الوحي الكلي، وهكذا يمكن لعهد لاحق تفاعل ملهميه مع واقعهم أن يقراءوا آيات الوحي القرآني وفق آفاق أكثر اتساعاً من قراءة ملهمين ومحدثين عهد مضى وذلك استجابة لتحديات ومعضلات كل زمان.

دلالة القراءة في سياق الوحي القرآني

تعد مفردة (قرأ) وما يشتق من جذرها أكثر المفردات التصاقاً بالنص القرآني والدلالة عليه والهداية إليه؛ بل إن مفردة (قراءة) تظل لمن تأمل في مكنونها الأوسع دائرة من بين سائر الألفاظ والمفردات التي تواترت في ثنايا النص القرآني للدلالة على الفعل المعرفي.

إن في مفردة (قراءة) استجماع لكل أبعاد المعرفة؛ حساً وعقلاً ووجداناً، ومن هنا فإن المرء ليقف كثيراً متأملاً كون أن أول تسمية لفئة المختصين بالعلم والمعرفة في الإسلام هي أنهم سموا (القُراء)، وهي تسمية سابقة لغيرها من المسميات كاسم (الفقهاء)، إذ كان أهل القرآن الكريم والمتبحرين فيه في العهد الباكر للإسلام يطلق عليهم (القراء).

هم القراء ليس لأنهم يحفظونه ويعلمونه للناس فحسب (الصعيد المعرفي)؛ بل هم القراء بحق لأنهم يعيشونه ويخلل وجدانهم وباطنهم (الصعيد القيمي)، حتى غدوا كما وصفهم البعض مصاحفاً تمشي بين الناس، وليس أدل على ذلك من أن القراء طيلة العهد الإسلامي الأول ظلوا هم الأوفر حظاً في نيل الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

إن القرآن الكريم عندما يتم النظر إليه بحسبانه خطاب الوحي الإلهي الهادف لإحداث تفاعل وتغيير في الواقع؛ إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فإنه يسوق المؤمنين به باتجاه التفاعل معه بحسبانهم قدوة في السلوك وقبلة في القصد والعمل (الصعيد القيمي)، فالقراءة الحقة لهذا القرآن الكريم تعني أول ما تعني الحياة وفق القيم القرآنية، وأن تغدو تلك القيم قيماً حياتية يومية، وتصبح اسلوباً متجدداً وفاعلاً في صياغة وتنظيم العلاقات الإنسانية على امتدادها وتنوعها، هكذا فنحن بين يدي قراءة لا تقف عند حدود النص بل تبنى جسورا تجعل الوحي يلامس الواقع.

يجدر هنا الوعي بأن هذه القراءة ليست مجرد تدبر صوري يرتكز على الخوض في أبعاد اللغة وتشكيلاتها التركيبية فحسب، بل الغاية والمقصد أن نخلص إلى رؤية للقراءة والتدبر يعيش من خلالها المتدبر الوحي القرآني بحسبانه دليل هداية وترقي روحي، ومن ثم يرتبط ذلك الوحي بواقع المتدبر؛ قراءة يتوحد فيها العلم والعمل، وتتسق فيها الكلمة والفعل، وصولاً لفضاء إلهامي هو خلاصة طرائق للترقي والتكمل الروحي التي تسمو بالمرء لمقام الإلهام والذوق والقراءة الحقة للوحي القرآني.

هذا الضرب من القراءة للقرآن الكريم هو ما يجعلنا نقترب من تجربة الترقي والتكمل الروحي عند الإمام النورسي بحسبانها المرتكز والمحور الذي تأسس عليه منهجه في استجلاء مكنون القرآن الكريم.

مفهوم التأويل في سياق الوحي القرآني

يُعد مفهوم التأويل من المفهومات الأكثر أثراً في تاريخ الفكر الإسلامي؛ فطائفة من الهزات والتحولات الفكرية والسياسية المهمة في تاريخ الحضارة الإنسانية لم تكن بمبعدة عن تأثير المفهوم للمراد من «التأويل»، لهذا فإن الأمر حول مفهوم التأويل يظل محل تباين واختلاف ممتدين عبر حقب الحضارة الإسلامية.

وبطبيعة الحال فلن يكون متاحاً التوسع في اشتقاق المفردة وسرد أقوال الاصطلاحيين والمقارنة بين ذلك جميعه، ونكتفي بالإشارة العامة إلى أن أصحاب المعاجم كابن منظور والجوهري والراغب الأصفهاني وغيرهم يجعلون التأويل مشتق من (الأوْل) بمعني الرجوع إلى الأصل أو الغاية أو المراد.

ويختلف أهل الاصطلاح من بعد اختلافاً واسعاً في مفهومي التفسير والتأويل؛ هل هما على الترادف أم بينهما تباين، وفي حال لم يكونا على سواء فما وجه التباين بينهما، وكل ذلك مباحث ينظر في مظانها، بيد أن الإشارة إلى مقالة الطاهر بن عاشور ربما تكون جامعة أو مقاربة للمعنى الغالب والذي يمكن أن نستهدي به كتوطئة عامة؛ إذ يرى أن « التأويل توضيح وتفسير ما خفيَ من مقصد كلام أو فعل وتحقيقه»[1].

بيد أن البحث بصدد توجيه مفهوم التأويل في سياق الرؤية حول تعزيز التلازم بين الوحي القرآني والإلهام؛ فنجيء على دعوة النبي ﷺ لابن عباس: «اللَّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فالمستفاد من هذه الدعوة المباركة لابن عباس هي إبراز مفهوم أكثر اتصالاً للتأويل بمنهج الإلهام والذوق، ولا احسب أن هذه الدعوة كان المقصود منها ذلك الضرب من المعرفة بالقرآن الكريم؛ أعني المعرفة اللغوية والبيانية.

حقاً إن ابن عباس قد حاز منه قدراً وافراً وبلغ فيه شاواً بعيداً، بيد أن ما عناه النبي ﷺ وما حازه ابن عباس يتجاوز ذلك الضرب المعرفي؛ إلى القدرة على تبصر مآلات نصوص الوحي القرآني بفهم ثاقب، بالإضافة لامتلاك الحكمة الكافية لتوظيف تلك البصيرة في الغوص باتجاه الإمساك بدقائق الأسرار، وتحقيق مقصد الوحي القرآني، وكل ذلك مما يلمسه القاريء في طائفة من المرويات والفتاوى المأثورة عنه.

يخلص الباحث إلى القول بأنه من الضروري التوسع في مفهوم التأويل؛ ليجيء متوجهاً صوب الحقائق الثابتة في الواقع بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها، وبذلك يكون «التأويل متضمن لنفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أو حاضرة أو مستقبلة».

إذن فالبحث يعتمد رؤية ترمي إلى الخروج بمفهوم التأويل من ذلك الحيز الذي يتم وضعه فيه حصراً، بحيث لا يتجاوز دائرة المباحث اللغوية والكلامية، إلى فضاءات مكاشفة الحقائق والأسرار القرآنية على النحو الذي نجده مبتدأه الأول في مناحى كثيرة من تدبر الإمام الجليل عبد الله بن عباس لآيات الوحي القرآني، ومن ذلك تأويله للآية الكريمة في آخر سورة النصر

(١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، الطبعة (بدون) ١٩٧٠م، القسم الثاني من الجزء الثامن، ص ١٥٤.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[1] قائلًا بأن الله قد نعي إلى النبي ﷺ نفسه.

وهذا منحى من التفسير لا يعتمد مستتبعات التراكيب وفق سياقات اللغة وطرائق علوم البيان والبلاغة فحسب، بل يمضي باتجاه استبصار دقائق المعاني وأسرار الوحي القرآني، وهو ذات المنحى الذي تشير إليه طائفة من الإشارات في رسائل النور للإمام النورسي، إذ نجده يسير على ذات المنهج المرتكز على الإلهام والذوق في استبصار واستنطاق نصوص الوحي الكريم.

(١) سورة النصر: الآية ٣.

المبحث الثاني

منهج الإلهام والذوق عند الإمام النورسي

يتفق الإمام النورسي في طائفة من النصوص المضمنة في رسائل النور مع هو دارج ومُشار إليه عند أهل اللغة العربية حين يَخُصون الوحي بـ «ما يلقى إلى الأنبياء خاصة، بمعنى قصر الوحي على معنى من معانيه كانت العرب تعرفه في استعمالاتها وكانت تفهمه على وجه من الوجوه»[1]، بيد أن الإمام النورسي يمضي باتجاه الاستفاضة في بيان وجوه المفارقة والتمايز بين الوحي والإلهام منطلقاً من ذات الرؤية التأسيسية الماثلة في تأكيد وحدة الدلالة العامة بين الوحي والإلهام والتكليم.

يشير النورسي ابتداءً إلى أن الوحي والإلهامات والتكليمات كلها تندرج ضمن دائرة الكلمات الإلهية، وهو يرى في تاملأته حول الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، إن الآية تشير بدلالتها الظاهرة إلى كلمات الله اللانهائية، وهذه الكلمات الإلهية ذات درجات متباينة ومتمايزة من حيث الخصوصية والكلية بحيث تنطوي على الوحي والالهامات والكلمات.

ليقرر النورسي وفق هذا التراتب ابتداءً القاعدة التأسيسية عنده وهي أن درجة الوحي تظل أسمى من الالهام، باعتبار أن الوحي كلياً وقدسياً، بينما الإلهام جزئياً وخافتاً بالنسبة إلى الوحي، كما يذهب إلى القول: «إن تدرجات جميع الإلهامات، بدءاً من الهامات النحل والحيوانات الأخرى، وانتهاء إلى الهامات عوام الناس وخصوص البشر، ومن الهامات عوام الملائكة إلى خواص الملائكة المقربين، جميعها تندرج كأضرب للكلمات الربانية، ولكن الكلام الرباني تجليات مختلفة للخطاب تتلمع من خلال سبعين ألف حجاب حسب قابلية لمظاهر والرفعة والمقامات»[2].

(١) مصطفى عبد الرازق: الدين والوحي والإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، ترجمة صادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص ٣٣٦

ثم يمضي إلى أن الوحي باعتباره ما يُلقى إلى الأنبياء إنما يكون بواسطة الملك، بينما أكثر الإلهام عنده هو بلا واسطة، كذا يرى أن الكتب المقدسة والصحف السماوية على نحوٍ عام تتفوق على جميع الكلمات، وهي أيضا يُنظر إليها بحسب درجاتها، وهكذا يشغل القرآن الكريم أعلى مقام بين هذه الكلمات اللانهائية، فالقرآن الكريم عند النورسي جاء من الاسم الأعظم ومن مرتبة الاسم الأعظم لكل اسم من الأسماء الحسنى، وهو أي القرآن هو الكلام الإلهي مباشرة[١].

ويشدد النورسي على خطأ من يتوهم تفوق الإلهام الذي يتنزل على قلوب البعض على الوحي؛ فيعد من الخطأ بمكانٍ أن يتخيل المرء المعاني الجزئية التي ترد على قلبه على على أنها آيات الله على ذات النحو الخاص بنجوم القرآن الذي هو الاسم الخاص للوحي ولكلام الله تعالى وأبهر مثال مشخص له، فتوهم ذلك أو إطلاق اسم الوحي على تلك الإلهام فهو خطأ محض، فالحقيقة إن تلك الإلهامات تتقاصر أمام آيات شمس القرآن الذي هو الكلام الإلهي مباشرة»[٢].

التعريف برسائل النور

الإلمام بمنهج الإمام النورسي في قراءة وتأويل القرآن الكريم يقتضي الوقوف على جملة المؤلفات التي ألفها الإمام النورسي وهي الرسائل المسماة برسائل النور؛ وفي ثناياها يستطيع الباحث التحقق والتدقيق في منهجه المرتكز على الترقي الروحي الموصول بالإلهام والذوق في قراءة وتأويل القرآن الكريم.

درج المشتغلون بفكر الإمام النورسي إلى تقسيم هذه المؤلفات إلى مجموعتين وفقاً لمرحلتين رئيسيتين من حياة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي: الأولى مرحلة باكرة من حياته درج على تسميتها بسعيد القديم وتتضمن منتوج مؤلفات عديدة منها «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» واللوامع والمثنوي العربي، والمناظرات، والخطبة الشامية، وهي مؤلفات تتسم بالإيجاز والاختصار وتكثيف المعنى في العبارة، إذ كانت يومئذ موجهة على نحو خاص لتلاميذه الخواص، وليست للآخرين.

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: ذو الفقار، ترجمة صادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص ١٤٤.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٧.

المرحلة الثانية المسماة بسعيد الجديد وهي بقية حياته التي جعلها بالكلية في خدمة الحقائق الإيمانية، وسعيه لبيان دقائق وأسرار القرآن الكريم، عبر تأليف ونشر رسائل النور، وتتضمن مؤلفاته الموسومة بالكلمات والمكتوبات الست والستين، بل المائة والثلاثين من أجزاء رسائل النور.

لئن كانت رسالة « إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز » سعت لبيان تفسير الإعجاز النظمي الذي هو أحد وجوه الإعجاز، وهي بهذا سلكت مسلكاً أقرب لكتب التفسير والتأويل ومضت على ذات النحو المالوف، فإن سائر رسائل النور تتضمن أيضاً تجلية حقائق التفسير، وتتحدث عن دقائق معاني القرآن الكريم وتتقصى في كنوز أسراره وبدائعه، وهي من هذا الوجه ينظر إليها كرسائل في التفسير على ما سنفصل فيه.

إدراج رسائل النور ضمن تآليف ومصنفات تفسير القرآن الكريم

ربما ألفت معرفتنا بأغلب مصنفات وكتب التفسير والتأويل للقرآن الكريم أنها تجيء ملتزمة بنهج وأسلوب التتبع على نحوٍ منتظم للآيات في سياق سورها، ومن ثم الغوص باتجاه الكشف عن دقائق معاني وحقائق هذه الآيات وفق أدوات معرفية مختلفة سواء ما هو موصول بالرواية والنقل، أو ما هو متعلق بالدراية والتحصيل لمعارف وعلوم شتى، ومن خلال كل ذلك ينصب السعي باتجاه بيان وتجلية معاني سياق الآيات ومفرداتها وأحكامها.

وليس ثمة شك في صواب من يرى أن رسائل النور لا تجيء وفق هذه الأكثرية من كتب التفاسير؛ ولا تسير على طرائقها، إلا أن هذه الرسائل لا تعدو عن كونها تسعى لتلبية ذات المرامي والأهداف التي يطلبها هؤلاء العلماء في مؤلفاتهم، فرسائل النور تسعى إلى الكشف عن دقائق ومعاني القرآن الكريم المخفية وإظهارها وبيانها، بل وتصوب نظرها تحديداً باتجاه تجلية الحقائق والأسس الإيمانية للقرآن الكريم بحجج قوية قاطعة، ومن هنا وباستحضار أن « كل كتاب يتحدث عن دقائق معاني القرآن وخقائقه هو تفسير نوعاً ما، ولقد ظهر في هذا النوع كتب كثيرة حتى اليوم في العالم الإسلامي، ولهذا فإن رسائل النور واحد من هذه التفاسير التي قامت حول الوحي القرآني وقد كتبت لبيان أسرار القرآن الكريم وإن اختلفت في منهجها وطريقتها عن بقية التفاسير »[1].

(١) المقدمة لكليات رسائل النور؛ انظر مثلا المكتوبات (مرجع سبق ذكره)، ص ٢٠ (بتصرف).

وفق هذا السياق تتواتر في رسائل النور تنبيهات الإمام النورسي إلى أن تلك الرسائل «تفسير حقيقي قوي جداً للقرآن الكريم»، وهي كذلك «برهان باهر للقرآن مباشرة وتفسير قوي له» وهي على ذات النحو « ترجمات الأسرار القرآنية»[١]، وهي «من لمعات الإعجاز المعنوي للقرآن الكريم» وهي «الأنوار القرآنية»، وهي «على ما تنم عليه من جمال وتأثير إنما تعبر عن لمعات الأمثال القرآنية».

وهذه الإشارات التي تفيض بها الرسائل وتجيء مبثوثة في أكثر أجزائها تعبر عن مكنون رؤية النورسي تجاه هذه الرسائل؛ فإنه يتوجب قراءتها في سياق إشارات النورسي المتلاحقة في طائفة من المواضع في الرسائل بعدم نسبتها إلى نفسه، فمثلاً نقرأ له يذكر: «والمتكلم في «الكلمات» - أي في رسائل النور كلها - ليس أنا، بل الحقيقة هي التي تتكلم باسم «الإشارات القرآنية» وإن الحقيقة تنطق بالحق وتقول الصدق»[٢].

فهي ليست له ولكنها سنوحات تجد معادنها وأساساتها في التسبيحات القدسية، وهكذا تتضمن مقالات النورسي في هذا السياق إشارات بأن الأذكار والتسبيحات القدسية المباركة نحو «بسم الله» و«لا إله إلا الله» وسائر الكلمات المباركة إنما هي معادن حقيقية لرسائل النور - التي تبدأ معظم سنوحاتها بالتسبيحات - وأساساتها ونوى حقائقها»[٣]، وهي كما يقول عنها قد تحقق وثبت بالدلائل والأمارات الكثيرة أن أجزاء رسائل النور ترشحاتٌ من القرآن.

وهنا يجيء المعنى الذي يتكرر كثيراً في ثنايا رسائل النور عندما يرى النورسي كونه مجرد مستخدم كأدنى جندي في خدمة الأسرار القرآنية، تلك الخدمة التي التي هي أعلى المقامات، فينال بسببها هذه الإكرامات والسنوحات، لكونه داعياً إلى الكنز السامي للقرآن الحكيم ودلالاً عليه، فهذه كلها ليست له بل للمقام.

لعل هذا ينهض إلى النظر في سيرة الترقي الروحي للإمام النورسي بغية الخلوص إلى رؤية حول استغراق تلك السيرة والمسيرة في ضروب من المعرفة والالتزام السامي بالقيم،

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٩.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة صادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الثانية ٢٠١٢م، ص ٤٥٨.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: عصا موسى، ترجمة صادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، ص ٥٣.

ما انتهى إلى إحداث تحولات إيمانية عميقة، وصلة كل هذا بمنهج الإلهام والذوق عند الإمام النورسي.

رسائل النور ومسار الترقي الروحي للإمام النورسي

تكاد سيرة الإمام النورسي تكون من الظهور والجلاء لأسباب تبدو ظاهرة، فقد عاصر حقبة ليست بعيدة من زماننا هذا، إذ عاش في أُخريات عهد الخلافة العثمانية ومضت به السنين حتى ارتحل عنا في العام ١٩٦٠م؛ لذا فإن قرب العهد إلى ما ضمنه مؤلفاته من إشارات لوقائع سيرته الذاتية، هذا بالإضافة إلى ما تناقله تلاميذه الأوفياء من سيرته، كل ذلك يجعل سِفر حياة الإمام النورسي يكاد يكون أكثر ظهوراً ووضوحاً.

ولد النورسي بشرق تركيا في ١٨٧٧م ونهل في صباه من علوم الحضارة الإسلامية، وساعده في الإلمام بكافة تلك المعارف والعلوم ما أوتيه من قوة ذاكرة، وملكة ذكاء وقاد، وأمضى شبابه متجولاً مشتغلاً بالعلم والرياضة الروحية في المراكز العلمية المختلفة، التقى فيها بأشهر علماءعصره وجالسهم.

اتجه بجهد شخصي إلى الإحاطة بالعلوم المدنية الحديثة كالرياضيات الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وعلم الفلك والتاريخ والفلسفة والجغرافيا، ومن بعد ذلك اشتغل بالتدريس والإرشاد، وشارك في الحرب العالمية الأولى مدافعاً عن وطنه، ليقع في الأسر ويمضي فيه عامين ونصف، ثم يعود لوطنه محتفي به ويعُين لاحقاً عضواً في دار الحكمة الإسلامية.

منذ العام ١٩٢٥م بدأت وقائع جديدة تحيط بحياة الأمام النورسي طابعها العام هي الملاحقات القضائية والزج به في السجون والإقامة الجبرية، وهي الفترة التي شهدت ما يسميه الإنقلاب الروحي في حياة سعيد النورسي، لتبدأ مرحلة «سعيد الجديد» الذي أضحى منذ تلك اللحظة خادماً للإيمان والقرآن، مولياً ظهره لـمرحلة سابقة «سعيد القديم».

هنا يجدر الإشارة إلى أن مفهوم الانقلاب الذي يشير إليه النورسي من سعيد القديم إلى سعيد الجديد، إنما يفهم بصورة مباشرة إلى اختلاف رؤيته لاسلوب الإصلاح والإرشاد الذي ينبغي اعتماده بتباين مرحلتين عاصرهما الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، وليس بحال من الأحوال اختلاف في الوجهة والمحتوي القيمي والأخلاقي بين السعيدين؛ وذلك ما عدا ما استلزمته مرحلة سعيد الجديد من انقطاعه بالكلية لأستاذه «القرآن الكريم».

في منفاه الأول بمدينة بارلا حيث مكث فيها ثماني سنوات ألف النورسي ثلاثة أرباع كليات رسائل النور (الكلمات والمكتوبات واللمعات) التي ترتكز في أغلبها على المسائل الإيمانية[١]، وفي سياق حياة المنفى والتضييق المادي ربما يلاحظ المرء أن الإمام النورسي يتجاوز تلك المعاناة على الدوام بالإشارة إلى ضد ذلك الوقع، فهو في إنعامات وعنايات إلهية دائمة.

وهكذا يشير على نحو متواتر في رسائل النور إلى أن نهوضه بوظيفة تقوية حقائق الإيمان وعقائد الإسلام؛ إنما هو إحسانات و إنعامات إلهية و إكرام إلهي، لذا تجد أثر ذلك في شعوره الدائم بأنه يعيش في ظل كناية ورعاية و إكرام إلهي، متعلقاً وموصولاً على الدوام بتلك البركة.

يقول: «أعيش بالبركة والإكرام الإلهي، فمع أن نفسي تستحق كل تحقير وكل إهانة، إلا أنني ككرامة لخدمة القرآن الكريم أنال البركة التي هي الإكرام الإلهي في الرزق»[٢] وتمتد دائرة الإمداد الإلهي بكرامة خدمة القرآن ليكون محط نوال فيوضات معرفية وذوقية جمة إذ يقول:... فلخادم القرآن بفيضه علم لا يضل، وقول لا يسكت، وقلب لا يخطيء، ونور لا ينطفيء»[٣].

إذن فإن هذه الأجواء والحيوات الروحية التي حياها الإمام النورسي متنقلاً ما بين سجن ومنفى ووحدة وغربة وعزلة تامة، وانقطاع من الروابط الاجتماعية، كانت جميعها في سياق ترتيب وتدبير إلهي لتهيئته روحيا باتجاه الخدمة القرآنية فهو يقول بعد لكل ما سبق: « كل ذلك لم يدع لي شكاً ولا شبهة لديَّ أنها لم تحدث إلا لدفعي للقيام بهذه الخدمة القرآنية بإخلاص وصفاء»[٤].

والنورسي يرى كذلك أن تركه المطالعة والقراءة وانقطاعه التام للقرآن الكريم لتكون آياته أستاذاً ومرشداً مطلقاً له مباشرة، وكل ذلك يوجزه النورسي في مقالته: «هناك من يستخدمنا دون إرادة علم منا، يستعملنا في أمور مهمة دون وعيٍ منا، ودليلنا على ذلك إننا ننال بعضاً من العنايات والتسهيلات من غير وعي و إرادة منا».

(١) المقدمة لرسائل النور، أنظر المكتوبات، مرجع سبق ذكره، ص ٨.
(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٨١.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٦.

وفي مقولة جامعة يستجمع النورسي كل ذلك المشهد المأثل في التسخير الرباني لتلك الوظيفة والخدمة والتهيئة لها والإمداد والإكرام المصاحب باتجاه خدمة القرآن والإيمان في عبارة قائلاً: « ونحن ننال تسهيلات وتيسيرات ذات كرامات فوق ما نأمل، لاسيما في نشر الرسائل وتصحيحها ووضعها في موضعها المناسب وفي تسويدها وتبييضها، ولا يبقى لدينا شبهة في أنها كرامة قرآنية، وأمثلة ذلك تبلغ المئات. ثم إننا نُرَبَّى ونُطعَم بشفقة في معيشتنا؛ حتى إن صاحب العناية سبحانه وتعالى الذي يستخدمنا يحقق لنا حتى أدنى رغبة من رغبات قلوبنا من حيث لا نحتسب كي يشبعها، وهكذا فإن هذا الأمر إشارة غيبية في منتهى القوة إلى أننا نُستَخدَم، ونساق إلى القيام بالخدمة القرآنية ضمن دائرة مرضاة الله سبحانه وتحت عنايته، فالحمد لله هذا من فضل ربي»[١].

وفق هذا السياق يستطيع المرء أن يستوعب الإشارات والتقريرات المتواترة في ثنايا رسائل النور، متضمنة ومنطوية على التأكيد بأن رسائل النور وهي «الكلمات التي أوضحت بفيض الإعجاز المعنوي للقرآن ثمار دين الإسلام وحقائق القرآن»[٢]، ليست له «وإنما أغلب ما كتب من الكلمات والمكتوبات كان يرد إلى القلب دفعة وفجأة دون اختيار مني، وعليه يكون جميلاً لطيفاً، فلو كنت أجيب باختياري مفكراً بالقوة العلمية مثل سعيد القديم لكان خافتاً ناقصاً، وقد توقفت السوانح القلبية منذ فترة قريبة، وضعف توقد الذاكرة شيئاً ما...»[٣].

يمضي النورسي ليشير إلى طائفة من الشواهد التي تنهض لتدعم رؤيته في أن تأليف رسائل النور إنما كانت وفق عناية إلهية وإكرام رباني وكرامة قرآنية، فثمة إشارة إلى أن ما أبانت عنه رسائل النور من «الحقائق الإيمانية والقرآنية فيها سعة بحيث لا يستطيع أن يحيط بها أكبر ذكاء بشري، ومع ذلك فإن ظهور أكثر تلك الحقائق مع دقائقها على يد شخص مثلي مشتَّت الذهن، في حالة بائسة، ليس عنده مراجع ومصادر، ويعاني من الآلام والمتاعب، ويؤلف بسرعة؛ لهو أثرٌ للإعجاز المعنوي للقرآن الحكيم مباشرة، وتجلٍّ من تجليات العناية الربانية، وإشارة غيبية قوية»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٥٢
(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

وحين كتب إليه بعض طلابه حول تلمسهم قوة وتأثيراً في رسائل النور التي ألفها مستقياً من القرآن الكريم قلما توجد في كلام المفسرين والعارفين، فكان جوابه: «يعود لما كان الشرف يعود إلى إعجاز القرآن، وليس إليّ أنا؛ فإنّي أقول بلا حرج:

إنها كذلك في الأكثر والأغلب؛ لأن الرسائل المؤلفة: تصديقٌ، وليست تصورًا، و إيمانٌ، وليست تسليمًا، وشهادةٌ وشهود، وليست معرفةً، وتحقيقٌ، وليست تقليدًا، و إذعانٌ، وليست التزامًا، وحقيقةٌ، وليست تصوّفًا، و برهانٌ في دعوى، وليست دعوى وادعاءً».

ثم يشير من بعد إلى بيانات العارفين في المسائل الفرعية كانت لزمانهم مقبولة وكافية حتى لو كانت بلا دليل لأنهم لم يواجهوا بمعضلات وهوادم وجهت باتجاه تخريب الأسس والأركان الإيمانية، فقد كانت تلك الأسس مصونة محفوظة، وكان التسليم قويًّا؛ لذا فإن الحكيم الرحيم ذا الجلال منحَ كتاباتي الخاصةَ بخدمة القرآن - رحمةً بعجزي وضعفي، ورأفةً بفقري وحاجتي - شُعلةً مِنْ «ضربِ الأمثال» الذي هو من أسطع معجزات القرآن الكريم[1].

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٩.

الخاتمة

شهد حقل تأويل القرآن الكريم في حقب الفكر الإسلامي الحديثة والمعاصرة مساهمات متتابعة لطائفة من العلماء والمفكرين وفق اتجاهات ومنهجيات متباينة، تُعنى هذه الورقة البحثية بإعمال النظر في مساهمة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي ومساعيه لتجلية حقائق القرآن الكريم على امتداد «رسائل النور» بحسبانها واحدة من تلك المساهمات والاتجاهات لتقديم قراءات تكشف عن معاني ومرامي آيات القرآن الكريم.

سعت الورقة تقديم رؤية تحليلية لاتجاه الإمام النورسي ومدرسته في قراءة وتأويل القرآن الكريم؛ واعتماده المنهج الإلهام والذوق فإنها تود أن تصوب النظر باتجاه المنحى الرئيس الذي يرى الباحث إنه يعبر عن السمة الرئيسة الذي تتميز بها مدرسة الإمام النورسي في تجلية حقائق القرآن الكريم.

استندت الرؤية المفتاحية للورقة على فكرة القابلية التي ينطوى عليها الوحي القرآني والقدرة الكامنة فيه لإثراء واغناء التجربة الإلهامية والروحية لدي المعنيين والمتصلين به على الدوام وبلا انقطاع؛ ابتداءاً من المصطفى ﷺ ومجتمع الأصحاب رضوان الله ومن ثم ينسل الأمر لمن بعدهم ويتصل في كل جيل وحقبة من مجتمعات الإيمان.

أشارت الورقة إن هذه القابلية والقدرة تقتضي الرسوخ والتأهيل الروحي، ليتهيأ لهؤلاء المكلمين بلوغ آفاقاً سامية عمدتها وروحها تجليات الوحي المراد تبليغه، بحيث يغدو كل أمرهم وشأنهم يمضي ويتحرك في اتساق تام مع كمالات الوحي القرآني المراد تبليغه.

ومن ثم فلا يكف هؤلاء الملهمين عن محاورة القرآن الكريم واستنطاقه، فيبلغون مقاماً يمتلكون فيه ذوقاً وعرفاناً وبصيرة حدسية نورانية، تنفتح بهم باتجاه الرسوخ في مقام الالهام، أي جريان القول بالحق الموحى به على السنتهم مناسباً بقدر ترقيهم الروحي.

أبانت الورقة إن وجود هؤلاء الملهمين أو المكلمين في مجتمعات الإيمان يتسم بالوجود الحتمي الذي استلزمته طبيعة الوحي القرآني والباقي فيهم، إذ هو دوماً يُعبر عن إعجازه من خلال قدرته وقابليته المتجددة على إيجاد فضاء وسيع للإلهام.

تخلص الدراسة بأكثر من وجه إلى أن رسائل النور بحسبانها ناطقة بدقائق أسرار الوحي

القرآني وخادمة له باتجاه تحقيق أسس الإيمان، ومن خلال سيرة الترقي الروحي للإمام النورسي، فإن هذه الرسائل تعبر تعبيراً جلياً عن منحى إلهامي في قراءة وتأويل القرآن الكريم؛ فهي ترشحات ذوقية وسنوحات قلبية لقراءة للقرآن استجمعت أسراره ودقائقه على صعيد المعرفة والقيم.

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

١- ابن حجر العسقلاني: فتح الباريء، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة.

٢- ابن منظور: لسان العلاب، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها (بدون).

٣- بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٤- بديع الزمان سعيد النورسي: ذو الفقار، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٥. ----------: عصا موسى، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٦. ----------: المثنوي العربي النوري، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٧. ----------: المكتوبات، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

٨. ----------: الكلمات، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٩. ----------: الكلمات، ترجمة الصادق تانري كولو وآخرون، القاهرة، دار السنابل الذهبية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

١٠. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها (بدون).

١١. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، الطبعة (بدون) ١٩٧٠م.

١٢. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة، المكتبة التوفيقية، الطبعة وتاريخها (بدون).

١٣. مصطفى عبد الرازق: الدين والوحي والإسلام، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة (بدون) ٢٠١٣م.

١٤. يمنى طريف الخولي: أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.